الفصل السابع عشر
قوانين ديوان مصر فى عهد السلطان سليم
فاتح مصر نادرة العصر

ديوان مصر هو دار السلطان الغورى الواسعة التى تسع خمسة آلاف شخص وعلى جانبيه قمريات ويجلس فيه كتبة الأقلام والمحاسبون مع الخليفة يفحصون الدفاتر. وفى وسط حجرة الديوان موضع مرصوف بالرخام يجتمع فيه أصحاب الحاجات خمس مرات فى الأسبوع ويخرج عليهم الباشا وعلى يمنته الدفتردار والبكوات، وقد اختلفت هيئة عمائمهم، وعلى يسرته يجلس رؤساء الباهية والمطوعة والانكشارية والطوبجية وكذلك رئيس فرقة العزب، ويطعمون ثلاثة آلاف صحف، إلا أن كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس الجبه جيه ورئيس المعمارين والصوباشى وجاويشية العزب والانكشارية لا يجلسون على تلك المائدة ويتناول أعضاء الديوان الطعام على حسب الأصول المرعية، وترفع الصحون ويأتى الخدام بالأباريق والقدور ويغسل الجميع أيديهم ويدعو القائم على الدعاء فى الديوان، وحينما يذكر رسول الله ﷺ يقفون مرتين إجلالاً وتعظيمًا، كما يقفون مرة إذا ذكر السلطان العثمانى، ثم يتفرق الناس بعد الدعاء ويبقى أصحاب الحاجات ويسأل كتخدا الجاويشية فى صوت مرتفع: هل من شاك؟

فإذا وجد شاك بُتَّ فى أمره وفصل فى خصومته، ويمضى الباشا إلى حجرة الكرسى ويبقى كتخدا الباشا والدفتردار ورئيس المتفرقة وكتخدا الجاويشية. وإذا ما وُجدت قرى آلت إلى المال الأميرى وهى خالية نادى الدلالون عليها بالمزاد وتباع، وبعد ذلك يتسلم الدفتردار والروزنامجى بقية المال الأميرى، ويمضى الجاويشية هنا وهناك لتحصيل هذا المال. أما العاجزون عن تحصيل المال من الملتزمين فيحضره الجاويشية إلى وسط الديوان حيث يوجد مكان لشنقهم، وفى هذا الموضع حبال غلاظ والملتزم المقصر تُربط ذراعه فى بكرة ويقوم أربعون أو خمسون جلادًا قساة بتجريده من ثيابه ويضربونه بالسياط بعد أن يرفعوه على عود بين الأعيان، ويرتفع صراخ المسكين إلى عنان السماء ولا يستطيع أحد أن يشفع له؛ لأن من يقومون بالشفاعة يطلبون على ذلك رواتب أول كل شهر أو كل

ثلاثة أشهر، ويقولون له: حصّل المال وسلمه لنا ونحن نرى ذلك عيانًا، ولا يشفع الأب لابنه ولا الابن لأبيه. وهذا ما يعرفه أعيان مصر ولهذا لا يشفعون لأحد وإن كان لهذا المسكين مال قدمه وينام على حصير وإذا لم يك ذا مال زجوا به فى سجن ضيق جهنم إزائه أعراف. وإذا عاش فيه الإنسان ليلة مات. ثم تباع قريته وممتلكاته وبذلك يكون خلاصه. وفى هذا المقام يكون الحكم للدفتردار الباشا لأن جراديتنا تحصل مرتباتهم من الدفتردار وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة، والدفتردار أعظم بكوات مصر كفاءة ويوليه السلطان منصبه بمنحة طوغين وهو يحصل كل عام من أقاليم مصر أربعمائة آلاف وخمسمائة كيس و ( )[1] بارة، وفى كل كيس خمس وعشرون أوقية وكل كيس فيه النقود المصرية، كل قرش فيه يعدل ثلاثين باره وبذلك يكون ما فى كل كيس مصرى ٨٣٣ قرشًا، وهذه المبالغ فى يد الدفتردار وفى العام تبلغ ستة وعشرين ألف كيس وتحت يد ( )[2] ثلاثة آلاف من الخدم، وخزائن هذه الأموال عليها خاتم الديوان وهى اثنتا عشرة خزينة ( )[3] ويضاف إلى ذلك خزينتان وبذلك يجتمع لمصر أربع وعشرون خزانة وفى كل خزانة ألف ومائتى كيس. وسوف نتحدث عنها فى موضعه بإذن الله، ولهذا الدفتردار مكان فى ديوان مصر، وليس لغيره من البكوات.

وفى ولاية مصر لكل ( )[4] باب للكتخدا وصرافين، ويقوم الصيارفة بإحصاء المال الوارد إلى الخزانة وإذا ما نقص أكمله «كتخدا قبوسى» أى نائب الباب. وتحت يد هذا الدفتردار رئيس للصيارفة يهودى وتحت يده كذلك ثلاثمائة صراف يهودى، ولكل ملتزم صراف يهودى، وهم يخدمون فى الأقاليم. وفى جميع الأزمنة كان اليهود شياطين ملاعين إلا أنهم فى مصر أحسن سيرة منهم فى غيرها وإذا ما تلقى أحد عملة نحاسية زائفة فى مرتبه وقابل صرافًا قدمها إليه فأبدله غيرها.

دار سك العملة فى مصر

ودار سك العملة هى عرض السلطان ويتولى شئونها الدفتردار، وعدد خدام دار سك

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

العملة خمسمائة رجل وكلهم يتبعون الدفتردار، أما أمين دار سك العملة فهو أغا الباشا. أما صاحب الكلمة فصاحب العيار، والدفتردار يتبعه. ولأن صاحب العيار مسئول عن السكة وعن العيار إذا وُجِدت عملة مزيفة قُطِعت يد صاحب العيار، وجميع خدام دار سك العملة تحت رياسته، وله خمسون سمسارًا يهودى وخمسون نحّاسًا وخمسون صائغًا وعشرة (هدفكار) وعشرة وزانين وخمسون (كهله دار) وعشرون دقاقًا وعشرون سكاكًا وعشرة من الدولابجية وعشرة حلائين ووزّان وسكاك وعشرون حارسًا وليس لهؤلاء عمل آخر غير ذلك وكل من جاء من بيته خلع ما عليه من ثياب ولا يلبس إلا الثياب الرسمية الخاصة بدار سك العملة والحراس يفتشون الخدام القائمين على العمل فى هذه الدار، ربما كان فى ملابسهم شىء مزيف وإذا ما وجد فى ثيابهم شىء فإن الحراس يرقبونه. وكل شىء يقدم ويأخذ بالوزن وبعد سك العملة تترك ثانية على النار وإذا ما خرجت الأقجة من النار سوداء جىء بصاحب العيار فى دار الضرب وتقطع يداه بقطع النظر عن كونه بك أو باشا، ولرئيس دار سك العملة مرتب يومى وهو محجوز فى حجرته على الدوام ويسلم ما سُكَ من عُملة لصاحب العيار ويختم عليه فى الخزانة وللخزانة خمسون حارسًا وهذا عمل شاق. ومن رأى دار سك العملة فى مصر كان فى غنى عن رؤيتها فى غيرها لأن الذهب جميعه يأتى من خزانة مصر وفى دار سك العملة هذه يصهر الذهب ليلاً ونهارًا، ويذاب خامه ويحول إلى أسلاك تقطع، ثم تدق، ثم يسك بمحله، ويصقل، وعندما يخرج من دار السكة وتداولته مائة وسبعون يدًا أصبح بلاء عظيمًا ولكنه بلاء حلو كالجماع، ولكنه حلو كذلك لأهله أما لغير أهله سم أقتل من سم الأفعى وحينما كان الذهب يتكوم فى مصر كالجبال ضاع كأنه طيف خيال كما أنه وهم خيال كذلك لمن يصدون عن دنياهم، وغرضنا من هذا التفصيل هو التحقيق وإلا فلله الحمد على قناعتنا.

أوصاف حكام مصر وسادة ديوانها

وفى مصر تيك كتخدا الجاويشية دفتردار الباشا، وهو بك بمقتضى القانون وله علاوة

على أتابعه مائتا جاويش وجميع جاويشية الديوان يضعون على رءوسهم العمامة المعروفة بالمجوّزة، ويحصل بواقى المال السلطانى بفرمان من الدفتردار، ويتلوه فى الحكومة رئيس المتفرقة وهو مسئول عن أموال الكشوفية والمال الصيفى والشتوى، وله من الأتباع مائتان، ويليه فى الحكومة ترجمان باشى أى رئيس المترجمين يتلقى شكاوى الشاكين ويمضى بها إلى مجلس الباشا. وإذا ما استدعى المدعى والمدَّعى عليه قام بالترجمة. وبمقتضى القانون يتلوه رئيس المتفرقة وله خمسون من الأتباع.

ورؤساء الجاويشية من فرقة الانكشارية ورؤساء الجاويشية من فرقة العزب يحضرون الدواوين الخمسة وإذا كان لأحد من زملائه فى فرقته شكوى ينظر فيها بمعرفة هؤلاء الرؤساء ومصيرهم إلى إمارة الحج أو رئاسة الخزانة، ثم يصبح «قول كتخداسى» أى وكيل، وبعده سنجق بك أى أمير الإقليم.

والروزنامجى حاكم عظيم كذلك فى مصر وهو ركن مصر الأعظم وكل ما يطير فى السماء وما يسبح فى البحر وما يمشى على الأرض مقيّد فى دفتر الروزنامجى وإذا ما شاء جعل الباشا مفلسًا حين عزله، وإذا ما شاء جعله ثريًا مستورًا، ومقامه يعادل مقام الدفتردار. وتحت الروزنامجى الكبير روزنامجى صغير، وتتبعه بعض الإدارات وأنبار يوسف ومن أجل مراقبة الروزنامجى الكبير فإن وزراء مصر يعينون روزنامجى صغيرًا ممن يتوسمون فيه الكفاءة والنجابة ويجب أن يكون كذلك لأنه شرف الباشا حين عزله وعلى الجوانب الأربعة للروزنامجى خمسون يخلفونه ويمسكون دفاتر الروزنامه، وكل منهم مكلف بدفتر ولاية من الولايات، وكل منهم مأمور بالنظر فى دفتر إقليمه، وكانوا يتواجدون فى أقاليمهم الخاصة بهم، ويتلوهم رئيس الديوان المعروف بـ مقابله جى أفندى وهو يقيد رواتب الفرق السبع وترقياتهم والمنضمين إليهم والمسرحين منهم. وهذا الرجل موضع ثقة وزير مصر الذى يعتمد عليه. إنه ليس مصرى ويتقاضى فى العام أربعين كيسًا وتحت إدارته خمسون، وإذا أهمل أحد النظر فى القائمة التى بين يديه منهم وأحيلت هذه القائمة على غيره قدر له مرتب شهر ويأخذ المقابله جى نصف هذا المرتب وما عدا ذلك يُمنح لدراويش القلندرية.. وثمة إيرادات كثيرة أخرى. إلا أن هؤلاء

المقابلجية يسكنون مع خلفائهم ولكن جان بولاد زاده حسين باشا أصدر فرمانًا بإقامة المقابلجى الخاص به فى الديوان. كما كان يسكن مع سائر خلفائه ويجلس فى ديوان الباشا بمصر وله دخل سنوى قدره اثنان وعشرون كيسًا من الكشوفية إضافة إلى الهدايا التى يتلقاها.

وثمة موظف آخر فى الديوان له الوقوف على جميع الأمور وهو يضطلع بوكالة الديوان، وهذا الموظف يقيد ـ وفق القانون ـ كل الأوامر الصادرة من مصر. وينال شيئًا من كل ضريبة ويتقاضى هذا الموظف كيسين.

وفى أحد أركان الديوان كذلك أمين الدفتر، وهو من قبل الباشا. وكاتب الشواغر الخارجية و(طشره محلول كاتبى)، وأمين الرسائل الخارجية وأمين الخزانة والمقابله جى أقندى، والمحاسبه جى أفندى، وكاتب الأيتام أفندى، وكاتب الانكشارية، وكاتب العزب، وهؤلاء بعد الديوان يبقون فى إداراتهم الحكومية. كما أن كتبة الفرق السبع يبقون فى إداراتهم الحكومية، وهؤلاء يرتدون أحسن الخلع ويجلسون مع معاونيهم.

ذكر الموظفين الذين يبقون فى الديوان بلا خِلعة، وأتباع الباشا ووظائف المتقاعدين منهم

أولاً إدارة المشاه وهى إدارتان وتعنى إدارة المقابلة والإدارة الثالثة منظمة والرابعة إدارة المتقاعدين والخامسة إدارة الشراكسة والسادسة أقلام السباهية والسابعة إدارات الأيتام والثامنة إدارات الخصيان والتاسعة إدارات ( )[1] والعاشرة إدارات الجواليان والحادى عشر إدارات الأمناء، وثانى عشر إدارات الملتزمين، ثالث عشر إدارات ( )[2] رابع عشر إدارات الخزانة العامرة، وخامس عشر إدارات صرّة مكة والمدينة، وثامن عشر إدارات انبار سيدنا يوسف الصديق أى أكلة الخبز، تاسع عشر إدارات المتفرقة، وعشرون إدارات الجاويشية، وحادى وعشرون إدارات المطوعة، ثانى وعشرون إدارات التفكجيه أى حملة البنادق، وثالث وعشرون إدارات البحرين، ورابع

(١، ٢) بياض فى الأصل.

وعشرون إدارات جماعة المشاة و ( )[1] السويس. وعددهم خمسة وعشرون وخامس وعشرون إدارات رجال المدفعية والجبه جيان والعربه جيان وصانعو الذخائر وكل هؤلاء نقلوا إلى مشاة المستحفظات. وإدارات الروزنامجه الكبرى، وفلاحو المدن، ومقاطعة جى الإدارات الشرقية، والغربية ومقاطعة جى المدينة، ومقاطعة جى إيراد الغلال ومقاطعه جى مصرف الغلال، وإدارات دشيشة صغرى، وإدارات المحمدى وإدارات المرادية وإدارات الخاصكية، وإدارات كاتب محلول.

ذكر الإدارات المضحكة لأمين البحرين

وعدد خزائن مصر نادرة العصر

والمستخلص مما ذكر أعلاه أن هذه الإدارات سبعون إدارة، وهؤلاء السادة طبقًا لقانون سليم يعملون فى ديوان مصر حسب درجاتهم. ولا وجود فى ديوان مصر لدفتردار الزعامة أو التيمار وأمين الدفتر كالشأن فى غيرها من الولايات. وبناء على قانون سليم فلا وجود فى مصر لشىء يتعلق بالتيمار ولا الزعامة لأن جميع أقاليم مصر عند تدوينها دُوِنت على أنها قرى ملك للدولة وما سمع بأرباب التيمار والزعماء ورئيس الجند وأمير اللواء.

ومما سلف ذكره عن الكتّاب إدارات تعرف بـ خورده أقلام وهى إدارات غريبة وعجيبة وقد ذكرنا قبل غيرها.

أولا: كل ما فى مصر من الحواه ولاعبى الصراخى، والمصارعين، واللاعبين، بالكؤوس، ومُربى الطيور، واللاعبين على الحبال، واللاعبين بالنار، واللاعبين بالكيزان، واللاعبين بالأطباق، واللاعبين بالصوانى، واللاعبين بالكرة الحديدية، ومحركى العرائس، واللاعبين بالصاجات، ولاعبى القمار، واللاعبين بالقصعة، واللاعبين بالورق، واللاعبين بالمرايا، والرياضيين، واللاعبين على الحبال، واللاعبين بالطيور، واللاعبين بالخرز، والحمّارة ومروضى الثعابين، واللاعبين بالقضبان، واللاعبين بالمطارق، والقُرداتيَّة، وعارضى خيال الظل، ومصارعة الديكة وأصحاب السيميا،

(١) بياض فى الأصل.

واللاعبين بالفئران ومروضى الدببة، والقاصين وقَشْمَرَان، ومربى النحل، والحاصل كل هؤلاء من أصحاب الحرف المضحكة والنحالين وبائعى الأشياء العتيقة، هؤلاء جميعًا تحت حكم أمين الخورده ولهؤلاء كثير من الأمثال، ويرد على الخزانة الأميرية فى كل عام ( )[1] كيس وتوضع فى خزينة مصر، وفى ولاية مصر ثمانون خزانة ويقدم فى ولاية مصر إلى الجند كل عام ملء تسعة خزائن والخزانة العاشرة لأشراف مكة والمدينة وخزانة للباشا وأخرى لأغواته. أما الخزانة الثالثة عشر فلأمير الحج المصرى والخزانة الرابعة عشر فتذهب إلى مصاريف أهالى العقبه وأزلم أثناء عودة الحجاج.

والخزانة الخامسة عشر ينفق منها على تعمير وترميم مكة والمدينة وزينتها وشراء الشمع الكافورى وعودها وعنبرها وما يجرى هذا المجرى. ومن الخزانة السادسة عشر تمضى من مصر الصُّرة إلى دمشق ومنها إلى مكة والمدينة، والسابعة عشر ينفق منها على المطبخ السلطانى ويشترى بها الأرز والسكر والأشربة العطرة والقهوة والفطائر المختلفة.

أما الخزانة الثامنة عشر فهى لفقهاء مصر ومقسمى التركات ولقضاة مصر. والتاسعة عشر حسب ما جاء فى دفتر الغزالى كان لمصر سبعة وسبعون ألف وقف طبقًا لما سجّله كمال باشا زاده فى بداية حديثه عن مصر، والآن اثنا عشر ألف منها معمور وموجود، وكل قادم إلى مصر يأخذ منه فقهاؤها دينارًا ذهبيًا للأوقاف وثمة أوقاف تنال أربعين أو خمسين أو مائة دينار ذهبى ويحصل لهذه الأوقاف، ومن العقارات والأفدنة خزينتان، تُقدم إلى المرتزقة والضيوف.

والخزانة العشرون تكون من نصيب كشافى مصر ويحصّل الخزانة الحادية والعشرين أمناء مصر وملتزموها وهم ينفقونها. والخزانة الثانية والعشرون يحصّلها مشايخ قرى مصر، والثالثة والعشرون يحصّلها الرعايا والفلاحون، والرابعة والعشرون يُتصدق بها على من يقدم مصر من تجار الأقاليم السبعة، أما الخزانة الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون والسابعة والعشرون تُحصى هذه الخزائن الثلاث.

(١) بياض فى الأصل.

وكل عام تمتلئ انبار يوسف بالغلال ويقدم منها الخبز والعلف إلى الجند، والحاصل أنه ـ على حد قول رجال الأعمال فى مصر، وهو صحيح ـ أنه فى كل عام يتحصل لمصر ثلاثون خزانة وفى كل خزانة منها ألف ومائتا كيس وسوف نكتب عن كل خزانة فى موضعها ولكن أشير إلى هذه المواضع طبق الفهرس، ولكن يا عزيزى هذه الخزائن يصيب منها كل ما يطير فى الجو ويدب على الأرض ويسبح فى الماء فمن إذن الفقير.

ذكر مقياس النيل المبارك وكثرة الناس وأنواع الحيوانات ووفرة الحمّارين

لقد أفاض الله على مصر البركات بالنيل، فيجمع المال السلطانى، فإذا ارتفع ماء النيل فى المقياس بمقدار ثمانية عشر ذراعًا يتحصل المال السلطانى، فإذا ارتفع ماء النيل فى المقياس عشرين ذراعًا يكون للباشا وللأمناء والملتزمين والكاشفين والرعايا نصيب ويحتفظون بالمال، وما لم يرتفع إلى ثمانية عشر ذراعًا اللهم عافنا يستحيل رى البلاد ويقع القحط والغلاء ويفلس جميع الأمناء والملتزمين ولا يتحصل خراج للسلطان. وإذا لم تكتمل الخزانة اضطر الباشا إلى تكميلها من ماله ويدفع رواتب الجند من صلب ماله، ويطلب ثلاثمائة ألف وخمسون إمام يحملون البراءة والخطباء والعلماء والصلحاء ومشايخ السادات وجميع سكان البلاد يطلبون من متولى وناظرى أوقافهم الطعام والمرتبات، ولمصر خزانتان للمال وإذا لم تدفع الرواتب ثارت الخواطر ولكن إذا ما عم مصر الرخاء نالوا طعامهم ورواتبهم ويدعون للباشا والسلطان وأصحاب الخير.

ولكن بناء على ما كتب محى الدين بن عربى من جفر: «إذا استوى الماء وتجاوز الخشبة من الجبل إلى الجبل وزاد على ثلاثة أذرع فلا شك فى غرق القاهرة، حقًا إن هذا كذلك.

ولما كان إبراهيم باشا كتخدا واليًا على مصر فاضت مياه النيل من عتبة دميرقبو أى باب الحديد وأمام تكية إبراهيم الكُلشنى بدا النيل وكأنه سهل كفى أهل مصر.

وجملة القول أنه ليس تحت قُبةِ السماء وليس فى البلاد الخاضعة لآل عثمان ولا غيرها بلاد مزدحمة بالسكان، خصبة وافرة المحاصيل مثل مصر أم الدنيا.

أما سبب تسمية مصر أم الدنيا فهو أنه إذا وقع القحط فى جميع بلاد الدنيا فإن مصر قادرة على إطعام هذه الدنيا. لقد منحها الله هذه الخيرات والبركات؛ ولكن إذا أُقْحَطَتْ مصر يومًا ـ لا قدر الله ـ فمحصول ألف بلد بل محاصيل الدنيا بأسرها لا تكفيها يومًا ولا تحقق الرخاء فيها لأن مصر بحر من الناس. فقد قدمت عام ١٠٨٢ وبينما كنت أتجول فى مدينة مصر مات فيها ثمانمائة ألف إنسان بالطاعون وهذا مقيد فى سجلات المذاهب الأربعة حتى إن إبراهيم باشا باع قرية خالية فى شهرين لتسعة رجال كل قرية بعشرين كيسًا ومع ذلك أصبحت خالية مرة أخرى وبينما كانت كذلك كان يستحيل المرور فى أسواقها لشدة ازدحامها. وما كان فى مصر من دواب مثل الحصان والبغل والجمل والعجل والجاموس والشاة والعنزة كانت تمر قطعانًا قطعانًا فى الأسواق، وقد كثرت الحمير فى القاهرة ولا ينقطع نهيقها فى جميع جنبات شوارعها ويقول الحمّارة «طريق يا سيدى طريق» ويسمون البَلَهْ من الترك بالحمار، وفى مصر أول ابتهال فى مقام السيكا نهيق الحمار فإذا ما نهق الحمار مرة. «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» وفى منتصف الليل إذا ما نهق الحمار فى حظيرته ساعتين متعاقبتين والعظمة لله اضطرب الناس وانزعجوا ظنًا منهم أن الوقت حان لخروج الدجال وهو من علامات الساعة، فجميع أعيان وأشراف ونساء مصر يركبون الحمير وهم فرسان الحمير فإذا ما وصل النساء إلى الأوزبكية والصليبة ومصر القديمة وبولاق وقايتباى لعبن الجريد وهن على حمير سروجها منفضة ومزركشة قائلين «هُسَك» وتنزهن على ظهور الحمير وليس هذا ما يعيب الناس فى مصر لأن كل تنقلاتهم بها. وكان لعلى بك الجرجاوى أربعين ألف حمار، فكان يشترى لها غلالاً بعشرات البارات، وهذا عنه فى مصر مشهور.

كما أن لأمير الحاج رضوان بك أربعين ألف جمل، والآن لا يمر فى مصر جمال ولا حمير تحمل الماء، وفى مصر اثنا عشر عيدًا فى العام وسوف نتحدث عنها فى موضعها، وفى هذه الأيام لا يمكن المرور فى الأسواق لازدحامها بالناس والحَمَّارة والجَمَّالة.